جامعة باجي مختار ـ عنابة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

د نجاة عرب الشعبة

nadjettearab@yahoo.fr

محاضرات في مقياس : النص النثري القديم

السنة الأولى ماسترـ تخصص ـ أدب قديم

السنة الجامعية 2022/2021

الخطابة في صدر الإسلام

تُعد الخطابة ضرورة اجتماعية تفرضها الظروف، وتعبر عن المجتمع بوجه عام، وكل الأمم في حاجة إليها، بل إن المواقف المجيدة في تاريخ الأمم مدينة للخطباء الذين عبروا عن قضاياهم أصدق تعبير، وأثروا في مجتمعاتهم أعظم التأثير. والتاريخ الإسلامي يعد أكبر دليل على فعالية الخطابة في نشر أعظم دين، حيث مثلت بلا شك في صدر الإسلام إحدى الركائز الأساسية والوسائل المهمة في الدعوة إلى الله، ونشر دينه الحنيف في بيئة قبلية جاهلية.

إن أمر الله تعالى جاء إلى النبي الكريم ليعلن الرسالة ويبلغها إلى الناس فلم يسعْه عليه الصلاة والسلام إلا القيام بما أمره به ربه، ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: 67]، فقام الرسول الكريم يدعو بالدين الجديد فأقبل الناس ينظرون ويتساءلون، ما الأمر، فكان منهم من شرح الله صدره للإسلام، ومنهم من أعرض واستكبر واتبع هواه، وحارب دعوة الله.

ومنذ ذلك الحين أهَلَّ على الخَطابة زمان جديد، كان إيذاناً بارتقائها وعلوِّ شأنها، فقد اعتمدت الدعوة الجديدة على الخَطابة في نشرها، والدفاع عن مبادئها ضد خصومها، وكذلك صنع المناوئون لها، "ثم إن الإسلام بالإضافة إلى اعتماده على الخَطابة في نشر الدعوة، قد جعلها ضمن الشعائر التعبدية، ففرض خطبة كل يوم جمعة، لا تصح الصلاة بدونها"1، كما أن هناك الخطبَ المشروعة في الحج، وفي الاستسقاء، وفي الخسوف والكسوف، وفي الزواج، والجهاد وغيرها، كما أن الشريعة الإسلامية تحث دائما على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإسداء النصح للآخرين.

1ـ خصوصية فن الخطابة في العهد الإسلامي:

لقد ارتقى فن الخَطابة في ظل الدعوة الإسلامية، وبلغ الغاية في الكمال مظهرًا وجوهرًا، أو أداءً ومضمونًا، وكان من أكبر عوامل ارتقائه وسموه؛ استمداده من القرآن الكريم، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتأثّر الخطباء ببلاغة وفصاحة القرآن والحديث النبوي الشريف.

وقد ذكر ابن خلدون أن كلام العرب الذين أدركوا الإسلام قد فاق كلام الجاهليين، في الشعر، وفي النثر بأنواعه من خطابة وكتابة ومحاورة ونحوها، وأن ذلك كله قد أتى أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من منظوم

الجاهليين ومنثورهم، ثم قال: " والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة، والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذيْنِ عجز البشر عن الإتيان بمثليْهما، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نَظْمهم ونثرهم أحسنَ ديباجة وأصفى رونقا من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة، وتأمّلْ ذلك يشهدْ لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصّر بالبلاغة

2ـ الخطابة خير سبيل إلى الحجاج والإقناع:

لا شك أن مجيء الاسلام أبرز الأحداث التي كان لها أثرها في تطور فن الخطابة، ولهذا انبرت الخطابة تشرح الدعوة الإسلامية، وتؤيدها وتدعو اليها، وتدافع عنها، وتبين أهدافها الكبرى، ومثلها العليا لأن الخطابة أقدر على شرح الحقائق، ومناقشة المسائل، فهي طريق الاقناع بالحجج العقلية، والبراهين المنطقية، والمؤثرات الوجدانية، ولأنها في مجال القول يتسع فيها لإفهام الخاصة والعامة، ولأن القرآن لم يعرض لها بما ينفر منها، أو يزهد فيها بل إنها كانت عُدة الرسول في كل موقف مشهود، وقد رفع صلى الله عليه وسلم لواءها من يوم أن نزل قوله تعالى " وأنْذِر عَشيرتك الأقْربين " فأتى الصفا فصعد عليه، ثم نادى " ياصباحاه " فاجتمع الناس عليه فقال " يا بني عبد المطلب، يا بني فهد، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصَدقي ؟ " قالوا نعم . ما جربنا عليك كذبا . قال : " إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " ، وبهذا اتخذ الرّسول الخطابة أداة لنشر دعوته واقناع المشركين بصدق رسالته. ثم اتخذها بعد الهجرة لإيضاح تعاليم الإسلام وعظ بها المسلمين وارشادهم الى ما فيه صلاحهم، وما لبث هذا الضرب من الخطابة أن أصبحت له تقاليد وأصول خاصة به .2

ودعا الرسول (ص) المسلمين الى الجهاد لنشر الدعوة الاسلامية في الأمم المجاورة للعرب فوجد ضرب آخر من الخطابة الغاية منه الحث على الجهاد في سبيل الله. وما لبثت خطبة الجهاد أن ازدهرت باتساع الفتوح الاسلامية وجدت طبقة خاصة من الخطباء تولت الحث على الجهاد وتذكير المسلمين بما ينتظرهم من الثواب الكريم إذا احسنوا البلاء في قتال المشركين .3

وكان الرسول الكريم وخلفاؤه من بعده يبعثون العمال والولاة الى الامصار فإذا قدم الوالي مصره قام خطيبا في الناس وبين لهم خطته التي سيسير عليها. وقد أصبحت هذه الخطبة سنّة للخلفاء والولاة يستهلون بها ولايتهم.

3ـ أغراض الخطابة في صدر الإسلام:

كثير من أغراض الخَطابة التي كانت قبل الإسلام؛ بقيت أيضاً بعد الإسلام، مثل الزواج والصلح، والحث على القتال، والأغراض السياسية، والقضاء وغيرها، وبقيت أيضاً كثير من عادات الخطباء العرب قبل الإسلام، واستمرت إلى ما بعده، مثل اعتماد الخطيب على العصا، وإلقاء الخطبة من مكان مرتفع، أو فوق الراحلة، وقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته في حجة الوداع، ومِثل لفّ العمامة، والإشارة أثناء الإلقاء، وغير ذلك.

ولظهور الأحداث السياسية التي طرأت على المجتمع الاسلامي أثرها في تطور الخطابة وازدهارها، فبعد وفاة الرسول (ص) اختلف الناس في أمر الخلافة وتنازعها المهاجرون والأنصار واستعان كل فريق بالخطابة في تأييد حقه فيها، فكانت خطب السقيفة أول ما عرفه العصر الاسلامي من الخطب السياسية.

وظهرت طلائع الفتن الداخلية، فكان ظهورها عاملا في كثرة الخطباء، فنجد الخطابة تلعب دورا هاما في فتنة عثمان، وقبله أبو بكر، ثم إبان خلافة الإمام علي كرم الله وجهه حين انقسم المسلمون مذاهب وأحزابا كل منها يريد الخلافة لنفسه . فكان على الخطيب تأييد حزبه ودعوة القوم الى نصرته والى مجاهدة خصومه.

فهذه الاحداث التاريخية كلها عامل فعال في ازدهار الخطابة وتنوع أغراضها في صدر الإسلام.

وتُضاف إليها الفتوح الخارجية التي اتسع نطاقها زمن عمر وعثمان . كما كان للحياة الحضرية الجديدة التي عرفها العرب ولقيام حكومه نظامية لها دستورها وأنظمتها، ثم اختلاط العرب بالأعاجم واتصالهم بحضارتهم، كان لهذا كله أثره في تطور الخطابة في هذا العصر.

4ـ خصائص الخطابة في صدر الإسلام:

اكتسبت الخطابة في الإسلام مزايا وخلالًا خاصة لم تكن فيها من قبل، حيث صارت تفتتح بحمد الله والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم، والتشهد بالشهادتين، والاستشهاد بآي من القرآن الكريم، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، والالتزام في مضمونها بأدب الإسلام وشريعته، مما يعني إهمال بعض

الأغراض التي كانت موجودة في الجاهلية، والترفع بالخَطابة عنها، مثل التنافر والتفاخر بالأحساب والأنساب الجاهلية، ونحو ذلك مما كان سائدًا قبل الإسلام.

وقد ذكر الجاحظ أن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين لهم بإحسان مازالوا يسمون الخطبة التي لم تبتدأ بالتحميد، وتستفتح بالتمجيد " البتراء " ويسمون التي لم تُوشَّح بالقرآن وتُزيَّن بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: " الشوهاء ".وخطب أعرابي فلما أعجله بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد والاستفتاح بالتمجيد، قال: " أما بعد بغير ملالةٍ لذكر الله ولا إيثارِ غيرِه عليه، فإنا نقول كذا، ونسأل كذا"، فرارًا من أن تكون خطبته بتراء أو شوهاء 4

وفي عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كانت أساليب الخطابة لذلك العهد رصينة في جملتها، سهلة الألفاظ إلا في القليل، لها مميزات الخطابة القوية، تعتمد على الألفاظ الضخمة، وعلى الجمل القصيرة يقل فيها السجع إلا إذا جاء عرضاً غير مقصود، فالخطبة ترسل إرسالا، لا تكلف فيه ولا تنميق، ومع ذلك تكون قوية الأسر، متينة السبك، ولا غرو فلقد كان القائلون مقاويل العرب وأبلغهم وكان المقام يتطلب لساناً بليغا يحرضهم ويدعوهم.

ولقد كثر الاقتباس من القرآن، وكان علي وصحبه أكثر غراما بالاقتباس يدخلون الآية والآيات في معرض خطبهم هناك ملاحظة تبدو في خطب علي وتظهر ظهوراً واضحاً إذا أنت وازنت بين خطبه التي قالها في أول النزاع وآخره،؛ فانك تجد خطبه التي قالها بعد التحكيم، والتي يستفز فيها القوم إلى حرب معاوية، ضخمة في ألفاظها، قوية في أسلوبها، متينة فخمة، أمتن وأقوى من تلك الخطب التي قالها في أول النزاع، وكانت خطبه تشتد وتقوى، كلما ضعف أمله في نصرة قومه، وزاد تواكلهم وتخاذلهم، وحسبك أن ترجع إلى خطبته التي قالها لرؤساء أنصاره ووجوههم بعد أن رجع من حرب الخوارج؛ أو إلى خطبته بعد أن أغار النعمان بن بشير على عين التمر، أو عندما أغار الضحاك بن قيس على الحيرة، أو حينما أغار سفيان بن الغامدي على الأنبار، واستمع إلى السيل المتدفق من فم علي حين يقول:. . . ألا وأني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وعلاناً، وقلت لكم أغزوهم من قبل أن يغزوكم، فو الله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتخاذلتم وتواكلتم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظهريا، حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان ...

وتعليل هذه الظاهرة واضح لا شك، هو ذا التخاذل الذي بدا من القوم بعد التحكيم، فلقد سئموا القتال وملوه، وركنت نفوسهم إلى الهدوء والدعة، واستسلموا إلى الراحة، ووجدت الفرقة سبيلها إلى قلوبهم، فكان الإمام في أشد الحاجة إلى ما يبعث الحياة فيهم، ويعيد الحماسة إليهم، فلا غرو، كان يلجأ إلى الخطابة فيجعلها قوية الأسر، مليئة بالألفاظ الضخمة التي تثير النفس، وتبعث النخوة، مفعمة بالتحذير والانذار، علها تحيي الميت أو تبعث الروح في الجماد.5

5ـ أشهر الخطباء في عصر صدر الإسلام :

لا شك أن الرسول الكريم من أشهر خطباء العصر الإسلامي لأنه القائم الأول على الدعوة الإسلامية المكلف بها من الله عز وجل.فقد أتاه الله جوامع الكلم، وكان له صلى الله عليه وسلم خطيب هو ثابت بن قيس بن شماس، وكان جهير الصوت خطيباً بليغاً. وأبو بكر الصديق وهو صاحب رسول الله –صلَّى الله عليه وسلَّم– وخليفته بعد وفاته، واسمه عبد الله، ويقال: عتيق بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤي القرشيّ التَّيمي، بُويع أبو بكر الصديق بعد وفاة النَّبي الكريم بإجماعٍ من المسلمين، فقد كان صاحب النَّبي في دعوته وكان أوَّل من أنفق في سبيل هذه الدَّعوة وبذل عمره وماله وروحه فداءً لرسالة الإسلام، واستمرَّت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتوفِّي مسمومًا وتولَّى أمر الخطبة بالنَّاس بعد وفاة النَّبي المصطفى أيَّام الجمعة وفي الفتوح، وغير ذلك مما استدعته الضَّرورة وسنَّه النَّبي محمَّد –عليه الصَّلاة والسّلام .

الحسن البصري: هو الحسن بن يسار البصري، كان إمامًا وقاضيًا ومحدثًا من علماء التَّابعين، وهو من الشَّخصيَّات المؤثِّرة والفاعلة في عصر صدر الإسلام، فكان قوله فصلًا ورأيه لا يرد، فيدخل على الولاة ويأمرهم وينهاهم ولا يخشى قول الحق، عمل كاتبًا للرَّبيع في عهد معاوية بن أبي سفيان، وقد أسهمت نشأته بين كبار الصَّحابة في تعليمه فتأثَّر بفصاحتهم ورجاحة عقولهم، وحفظ القرآن صغيرًا وروى عن الصَّحابة أحاديثهم ممّا أسهم في بلاغته وفصاحة لسانه وعلوّ بيانه، وقد كان عالمًا جليلًا وخطيبًا مفوَّهًا، فقيل إنَّه أعلم أهل عصره، وقد تتلمذ على يده الكثيرون، ومن أشهرهم واصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة..

الهوامش:

1ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط 5، 2016، ص52

2ـ الجاحظ، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ ج 2 ، ص 6.

3ـ راجع محمد أبو زهرة، الخطابا في أزهر عصورها، ص 40/ 45

4ـ انظر حسن الحاج حسن ، أدب العرب في صدر الإسلام، المؤسسات الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 1992 ، ج 1، ص 105

5 ـ أحمد بدوي، الخطابة في عهد علي بن أبي طالب، مجلة الرسالة،ع221، ar.wikisource.org/wiki